

تهويد التراث الفلسطيني الحرم الابراهيمي نموذجاً

د. محمد العلامة ♦

ملخص البحث:

عندما بدأت الحفريات الأثرية في فلسطين كان الأثريون التوراتيون يفسرون المكتشفات الأثرية وفقاً للمعرفة المستمدة من الكتاب المقدس وكتابات جوزيفوس فيلافي وتطبيقها على المواقع الأثرية في فلسطين، وكان من أهدافهم إيجاد الصلة بين فلسطين والروايات التوراتية، ومحاولة إيضاح ما جاء في التوراة من خلال المكتشفات الأثرية. وسنتناول في هذه الورقة البحثية إشكالية تلك المصادر، وسنتطرق إلى الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل كنموذج حي لتهويد هذا المعلم الأثري، وستشمل الدراسة الحديث عن نشأة الحرم منذ البدايات الأولى وحتى الوقت الحاضر، وسنناقش الإدعاءات الإسرائيلية في قضية تهويد هذا الموقع الأثري من قبل السلطات الإسرائيلية.

♦ جامعة الخليل .

قبل البدء بالحديث عن تهويد المقدسات الاسلامية ، لا بد من التطرق الى الاشكاليات التي تواجه الباحث في دراسة تاريخ فلسطين القديم ، وهو اشكالية المصادر ، فمصادر دراسة تاريخ فلسطين القديم متعددة ومتنوعة ، حيث وصلت إلينا من مراحل زمنية متنوعة / فتاريخ فلسطين القديم معروف من المصادر القصصية والروايات إضافة الى التنقيبات الأثرية فالمصادر القصصية والروايات (المؤلفات الأدبية ، مؤلفات المؤرخين القدماء) لا تخبرنا عن الحقائق التاريخية ، وإنما كيف فكر هؤلاء عن الحدث التاريخي أو كيف فكر المجتمع أو الفئة التي ينتمي إليها المؤلف .

ف عندما بدأت الحفريات الأثرية في فلسطين ، كان الأثريون يفسرون المكتشفات الأثرية وفقا للمعرفة المستمدة من العهد القديم وكتابات جوزيفوس فيلافي وتطبيقها على المواقع الأثرية الفلسطينية ، ومن المعروف أن عملية كتابة تاريخ فلسطين القديم تمت على أيدي كتاب غربيين ، حيث شكل لهم العهد القديم المرجعية الأساسية ، فبدأ تاريخ فلسطين القديم وكأنه تاريخ اليهود ، أما بقية الشعوب فجاء تاريخها هامشيا ، أو كما ذكر بعض الباحثين تم انتقال التاريخ الفلسطيني بالعهد القديم ، والسؤال الجوهرى هل العهد القديم وكتابات جوزيفوس مصدران موثوقان لدراسة تاريخ فلسطين القديم ؟ وللاجابة على هذا السؤال لا بد أولا من التعرف على طبيعة العهد القديم وكتابات جوزيفوس فيلافي ومحتواها ، وموقف المدارس التاريخية من العهد القديم .

يتكون العهد القديم في صيغته النهائية من ثلاثة أجزاء : الأول كتب موسى الخمس أو القانون والثاني الأنبياء والثالث الكتابات ، وكل جزء يحتوي على مؤلفات متنوعة كتبت في أزمنة مختلفة . فالجزء الأول يحتوي على قوانين دينية واجتماعية وتشريعات ، والجزء الثاني يتحدث عن الأنبياء والثالث هو الكتابات التي وضعت في العهد الفارسي القرن ٤-٥ ق.م. والعصر الهلينستي. وهكذا وضعت مؤلفات العهد القديم على مدى امتداد ألف سنة في ظل ظروف متغيرة .

لقد كانت التوراة من المصادر الرئيسية لدراسة تاريخ فلسطين القديم وذلك لغاية الثلث الأخير من القرن العشرين ، ولكثرة الحفريات الأثرية في مناطق مختلفة في فلسطين ومصر وبلاد النهرين فقد تراجعت الى المرتبة الثانية ، فالمدارس التاريخية متباينة حول هذا الموضوع : فالمدرسة الألمانية المرتبطة في نشأتها بالكنيسة البروتستانتية نفت كل الروايات عن الآباء (ابراهيم واسحق ويعقوب) ويعارض ذلك مدرسة المؤرخين الانجلو_امريكية، بالرغم من اعترافهم بالتدوين المتأخر للروايات إلا انهم يتقنون بالأخبار الرئيسية في هذه الروايات، وظهر اتجاه جديد يناهض بفصل الروايات التوراتية عن تاريخ فلسطين القديم ومن ابرز ممثلي هذا الاتجاه توماس تومسون وكيث وايتلام.

لقد دونت الروايات بعد ٥٠٠_٤٠٠ عام أي بعد ١٥ جيل بقيت فيها دون كتابة، وقد خضعت هذه الروايات إلى التحيز الذي يلبي رغبات أيديولوجية متأخرة إذ لم يسجلها

معاصرو هذه الحوادث مما يجعلنا نتحفظ على قبول هذه الروايات، واعتقد أنه يجب على الباحث إلقاء نظرة فاحصة تمكنه من مقارنة الرواية التوراتية من خلال المصادر الأثرية والكتابات القديمة والأدلة المعاصرة للحدث.

أما بخصوص كتابات جوزيفوس فيلافي فله مؤلف بعنوان " أخبار اليهودية القديمة " و " الحرب اليهودية " في الكتاب الأول اعتمد على التوراة، وعلى الرواية اليهودية وهذه لا نستطيع أن نتحقق من صحتها، وعلى كتاب سابقين مثل بيرسوس البابلي ومانيثون المصري وديوس الفنيقي، ومن الواضح أنه لم يعرف مؤلفات هؤلاء الكتاب مباشرة وإنما عن عرفها من خلال كاتب آخر هو نيقولاس الدمشقي، ومن ثم تصبح معلوماته من الدرجة الثالثة، وكذلك نجده لا يتحرى الدقة العلمية في بعض الأحيان، ويظهر هذا بشكل واضح في مؤلفه " أخبار اليهودية القديمة ".

وفي الحقيقة لا نستطيع أن نعتمد عليها كمصدر تاريخي، إلا إذا تم مقارنتها بمصادر أخرى وبالتالي يجب على الباحث والمختص أن يستخدم أسلوب المقارنة والمماثلة التاريخية والمصادر المتنوعة.

وبخصوص الحرم الابراهيمي الشريف في الخليل فهو ثاني أثر اسلامي في فلسطين بعد المسجد الأقصى، حيث تسعى الجماعات اليهودية المتطرفة التي لم تستطيع تحقيق اهدافها في المسجد الأقصى طوال سنوات من الصراع، ولكنها حققت أغلب امانيتها في الحرم الابراهيمي الشريف الذي اصبح مقسما بين اليهود والمسلمين، وفي الأعياد اليهودية يكون كله تحت تصرف اليهود ويحظر على المسلمين الوصول إليه، فالوصول إليه في الأيام العادية يكتفه مصاعب جمة لأن المستوطنون لم يسيطروا على الحرم الابراهيمي فقط وإنما علة مفاصل مهمة في البلدة القديمة في الخليل.

فالمسجد الابراهيمي يعد من بقايا ابنية هيرودس الأدومي في القرن الأول ق.م حيث شيد السور فوق مغارة المكفيلين واستدل الأثريون انه أقيم لحماية المقبرتين وفي العصر البيزنطي شيد على أحد أطرافه كنيسة، وبعد الغزو الفارسي لفلسطين عام ٦١٤م دمرت الكنيسة. ونظرا لأهمية المسجد الابراهيمي فنلاحظ أن جميع القادة المسلمين والعرب حرصوا على ترك بصمات هامة على هذا البناء الذي يحمل اليوم كل خصائص العمارة الاسلامية في فترات متلاحقة.

وادت سيطرة الاحتلال الصهيوني منذ ١٩٦٧ إلى هجر سكان البلدة القديمة لمنازلهم وما تبقى يعاني من المستوطنين والجيش الاسرائيلي ونقاط الحراسة والاسلاك الشائكة التي تجعل الفرد لا يستطيع الخروج إلى منزله أو باب بيته، أو يفتح النوافذ التي تطل على الحرم الابراهيمي الشريف.

فقد بدت معاناة أهالي المدينة في ١٩٦٧ حيث اقتحم اليهود الحرم الابراهيمي الشريف برفقة خاخامهم الأكبر ورفعوا العلم الاسرائيلي عليه ومنعوا المسلمين من دخوله وقاموا بتغيير طبيعته مثل نسف ادراج وأبار الحرم.

وتسعى حكومة نتنياهو بتغيير المعالم الاسلامية وطمس الآثار الاسلامية عبر مشاريع ومسميات التحديث، وفي عام ١٩٦٨ اصدر الحاكم العسكري للضفة الغربية أمرا بفتح الحرم الابراهيمي الشريف ليلا أمام المستوطنين، وفي ١٠٧٠ أدخلت ادوات يهودية إلى الحرم وطبعت أجزاء منه بطابع يهودي واستمرت الاعتداءات في ١٩٧٢ حيث حظر الجيش الاسرائيلي بعض المناطق على المسلمين وخضعت لليهود، وفي ١٩٨٠ فرض برنامجا يحدد فترات الصلاة، وفي ١٩٩٠ انشأت السلطات الاسرائيلية مدرسة يهودية في احد أجزاء الحرم الابراهيمي، وفي ٢٥ فبراير ١٩٩٤ ارتكب الارهابي الصهيوني باروخ غولد شتاين مجزرة الحرم الابراهيمي وكان على أثرها تقسيم الحرم بين اليهود والعرب.

وفي خطوة تهويد الماكن الاسلامية المقدسة في فلسطين اعلن رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتنياهو في ٢١ شباط ٢٠١٠ ضم الحرم الابراهيمي الشريف في مدينة الخليل ومسجد بلال بن رباح في مدينة بيت لحم إلى قائمة ما يسمى المواقع التراثية اليهودية، وقد افتتح نتنياهو جلسة حكومته بالقول " أن وجودنا كدولة ليس مرتبطا بالجيش فقط او بمناعتنا الاقتصادية وإنما في تعزيز معرفتنا وشعورنا الوطني الذي سننقله إلى الأجيال المقبلة وفي قدرتنا على تبرير ارتباطنا بالبلاد".

وتتص خطة نتنياهو على صيانة وترميم ١٥٠ موقعا أثريا وربطهما بالتوراة، فالحكومة الاسرائيلية تعتزم اطلاق خطة خمسية لتهويد مواقع أثرية في فلسطين وأقامة مشاريع تراثية مرتبطة بالتوراة والتراث اليهودي المزعوم، وتشمل الخطة إقامة نصب تذكارية ومتاحف صغيرة ومسارات للمشاة ومواقع أثرية وحدائق ومركز معلومات وترميم مواقع قديمة.

والذي حدث في الحرم الابراهيمي الشريف أخشى ان يحدث في المسجد الاقصى.